دور مصر...
حديث هادئ مع التاريخ

من أوراق السبعينيات
الثوابت.. والمتغيرات

"الشخصيات وليست المبادئ هى التى تحرك الزمن"

أوسكار وايلد

obeikan.com

ما حدث فى بداية حقبة السبعينيات لم يكن بعيدا عن دائرة التأثير فى حركة الدور المصرى.. كان "الدور" هو الهدف.. إبطال مفعول الدور المصرى و"حشره" داخل الساحة الجغرافية لمصر، وبعد أن كانت خطورة جمال عبدالناصر ـ بالنسبة للقوى الطامعة والغالبة ـ أنه كان تيارا عريضا ممتدا عبر كل الحدود السياسية فى العالم العربى.. وكانت هناك حركة تاريخية عامة ونشطة فى المنطقة تستند إلى دور مصر قبل أى شىء آخر، وهو دور يمتلك عناصر قوة غير منظورة، وتأثيرها أشد من تأثير عوامل القوة المنظورة.. ولذلك لم تتأخر حملة التشكيك الموجهة لمصر ـ إلا أياما معدودة ـ بعد رحيل عبدالناصر، ومع بداية تصوير ثورة ٢٣ يوليو وكأنها سنوات طويلة من القهر والظلم والاستبداد!! ثم جرى تصوير ملحمة السد العالى وكأنها كارثة بيئية حلت على الأرض الزراعية فى مصر!! وأصبحت حرب السويس هزيمة ساحقة، رغم انتصارها الذى كان نقطة تحول فى العالم العربى، وفى قارات العالم الثلاث النامية آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية، وحين سجلت نهاية مرحلة أكبر إمبراطوريتين فى العالم ـ البريطانية والفرنسية ـ وحتى تأميم قناة السويس أصبح قرارا انفعاليا جر على مصر عدوان ثلاث دول، ودون الاحتكام للعقل وانتظار الموعد القريب لانتهاء فترة الامتياز عام ١٩٦٨!

ولم تقف حملات التشكيك عند هذا الحد.. ولكن.. تجاوزت كل الحدود والخطوط، وفوق كل ما يمكن تصوره!!

وكان الهدف أن يهتز يقين الشعب المصرى فى كل إنجازاته، وفى كل شىء حوله، ليصل إلى حالة إحباط تورثه شعورا من اللامبالاة يجعله يقبل بما لا يمكن قبوله، وأن يسكت عما لا يجوز السكوت عليه، ـ حسب تعبير الأستاذ محمد حسنين هيكل ـ وكان الخطأ وقتئذ أن البعض

تصور أن ما يحدث مجرد شئون داخلية مصرية، حين راجت تجارة (صناعة المذكرات) وتسويقها، ودخلت الساحة أقلام جديدة تبحث عن (الرزق المتاح) ولا يهم - فى مفهومها الأخلاقى - الثمن المقابل، بعد أن استبيحت سطور التاريخ وبعد أن تراءى لها بالظن أو باليقين وحسب وسائل الإدراك أن فجر الكلام المباح أهدر دماء مرحلة كاملة برموزها السياسية والفكرية والثقافية التى شاركت فى تشكيل وخلق التوجهات القومية للجماهير العربية، ووعيها بمستقبل وجودها، وبلورة فكرها ووجدانها الثقافى.

واستمرت سنوات (الحملة) وتعددت جبهات الأقلام لتفكيك أوصال الأمة والإجهاز عليها بإثبات الإدانة - سياسيا وفكريا - ومن ثم تصفية فكرة القومية العربية وقطع شرايين مشاعرها الممتدة بالانتماء داخل الجسد العربى الواحد.. والهدف كان محددا - ولا يمكن أن تنزلق الرؤية بعيدا عن مساحته الكلية - وهو اختراق العقل المصرى والعربى اختراقا متعدد الزوايا ومكثفا، حتى إذا فشلت "نظرية الردة" ولم تحقق مكاسبها بتغيير قيم ومبادئ فإن ما يمكن التوصل إليه هو حالة من عدم الاستقرار - البلبلة - أو تفكك أنسجة العقل العربى ثم توجيه الخطاب المناسب للمرحلة المناسبة!! والنتائج - بكل أسف - كانت تدميرا للأحلام والآمال والتطلعات داخل خريطة القومية العربية ومحاصرة مبادئها بقذائف مستمرة أطلقتها بعض الأقلام، لذلك فإن ما حدث من حولنا وبدعاوى حرية الرأى والقول كان بالتحديد عملية حفر تحاول بشتى الطرق تحطيم الأعمدة التى قامت عليها واعتمدت على صلابتها أسس الفكر العربى.. وتصدعت داخل عقول الغالبية العظمى من الجماهير المصرية معايير

القياس والحساب، وتكسرت تحت أنظارها موازين عديدة كانت تساعد فى وضوح الرؤية، ثم انتقلت العدوى إلى الجماهير العربية، وبعد أن كانت تراقب ما يحدث فى مصر بدهشة تصل إلى حد الاستنكار شديد اللهجة!!

....

والغريب ـ حقا ـ أن تلك الأقلام التى ساهمت بقدر معلوم فى إدارة مهرجان "قذف السهام" على شواهد المنجزات وسط موجات التشويه والتجريح والإدانة الشاملة الظالمة ـ هى نفس الأقلام التى نالت قدرا عاليا من إعجاب واحترام القارئ المصرى والعربى طوال فترة نبوغها الأدبى ونجاحها الصحفى خلال الثمانية عشر عاما من حكم عبدالناصر، وبعطائها الفكرى وجدت الفرصة مهيأة لانتشار إبداعاتها، ولو حدث ما قيل عن تكسير أقلامها ما كنا بالضرورة قد سمعنا أو قرأنا عن تلك الأسماء ومتابعة إنتاجها الوفير! فكيف يمكن للتربة المستعمرة بسنوات القهر وسلطان الفرد أن تقدم لنا ثمارها من الإنتاج الفكرى، وأن تنبت فوقها عقولا كانت لها الريادة الأدبية على الساحة العربية؟!

....

....

وأعتقد أن مهمة الحملة كانت محددة بتمهيد الساحة وتجريف الثوابت.. ثم شق الطرق داخل العقل العربى ليتقبل المتغيرات الطارئة والمستجدة!!

عموما.. لم نهتم كثيرا ونحن نتابع مشاهد الحملة وتسلسل بناؤها

الدرامى وتعدد الأساليب والأدوات ـ بمستقبل الوعى داخل العقول العربية ـ ولأكثر من جيل ـ تمكن منها كم هائل من الإحباط . .

* جيل كامل شهد مولد الثورة فى سن النضوج وآمن بمبادئها وتحمس لها فأعطى الثقة كاملة لقائدها وبإعجاب يصل أحيانا إلى درجة الانبهار .

* جيل الأبناء ـ الذين بدأت أعمارهم مع بداية الثورة وحين رحل عبدالناصر كانوا زهرة شباب هذه الأمة المتفتحة بالأمل ـ جيل يبحث ويناقش ويتطلع إلى آفاق رحبة لا تحد حركته أو تعيق رؤيته نكسة ١٩٦٧ .

* وجيل آخر بدأ سنوات العمر بعد وفاة عبدالناصر وتفتحت عيون الوعى لديه مع مؤلفات الحملة وهم لا يدرون أين الحقيقة بعد أن أصاب "الدوار" جيل الآباء نفسه .

* وأجيال قادمة سوف تعى مؤخرا أن تاريخها قد تعرضت سطوره خلال سنوات حقبة السبعينيات لأسوأ محاولات السطو وحذف النقاط من فوق الحروف حتى تبدو السطور مبهمة أو "مشوهه" وتقبل الإحلال أو التبديل وتخضع لعوامل الطرح والقسمة .

وإذا كان "نابليون" قد حدد بالقول أننا أمة تحركها الكلمة . . فإن ما وراء القصد كان استخدام (الكلمة) لغزو عقول تلك الأمة والسيطرة عليها ! !

ولقد خلقت هذه الظروف وعيا "مشوهًا" . . وقد بدأت تنهار قيم ومبادئ أحاطت سياجها بمفهوم التضامن العربى ، ووحدة المصير ،

والهدف، ووحدة الأمن القومى العربى.. وعلى هذا النحو جرى تشكيل المفهوم الجديد بأن تلك المفردات كانت أوهاما وشعارات بالية اختلست من العمر سنوات بلا فائدة.. وكان هناك شبه صراع على ذاكرة مصر ويريد لها بعضهم أن تنسى فى منتصف الطريق.. من هى!!

....

....

وعودة إلى تأكيد القول..

فإن هذه الحقبة قد شهدت رياحا عاصفة هبت بالشكوك حول عروبة مصر.. وارتفعت ـ وقتئذ ـ بعض الأصوات ترفع من شأن "مصر الفرعونية" وتدفع أمامها بشعار "مصر أولا" والانتماء للمصلحة الوطنية أولا وأخيرا، وفى مواجهة "عروبة مصر" والانتماء لهوية "القومية العربية".. ووسط تلك الدوامات من تساؤلات الشك، تم إدانة دور مصر تجاه ثورة اليمن وثورة الجزائر، وأصبح عطاؤه فى محل الاتهام!! وبدأ التلاعب بحقائق استراتيجية ضخمة تستند إليها دعائم دور مصر الذى جعل منها قوة إقليمية بعروبتها، بل وعلى قاعدة عروبتها جعل منها قوة عالمية بمكانتها فى العالم الثالث وبتأثير حركتها داخل قارتها الإفريقية..

وأتصور أن الطعن فى حقيقة انتماء مصر إلى أمتها العربية.. كان.. بقصد تعطيل حركة الدور المصرى..

....

ولا أعرف هل هى مصادفة أن تثار نفس القضية مجددا ـ من أوراق

obeikan.com

السبعينيات ـ بعد أن فتح الكاتب الراحل أسامة أنور عكاشة مرة أخرى أبواب الجدل بعد أكثر من ٣٥ عاما حول حقيقة لا تقبل الجدل؟! ولا أحد يعرف لمصلحة من التشكيك فى عروبة مصر؟! والتساؤل الحائر والقلق يفرض نفسه.. وأتفق مع الباحث ضياء رشوان ـ الخبير بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ـ فيما يقول.. هل هى مصادفة أم مفارقة، أن يكون أول هجوم "صاخب" على فكرة عروبة مصر، وعلى توجهات ثورة يوليو ١٩٥٢ القومية العربية بقيادة الرئيس جمال عبدالناصر بعد رحيله، آتيا من سيد المسرح العربى توفيق الحكيم عام ١٩٧٢ فى كتابه "عودة الوعى" وأن يكون آخر هجوم من النوع نفسه قادما من أبرز كتاب الدراما التليفزيونية "المصرية العروبية".. أسامة أنور عكاشة؟! والأرجح أننا أمام مصادفة ومفارقة فى الوقت نفسه مع تشابه فى المنطق الذى يبنى عليه الكاتبان الكبيران الحجج، التى ساقاها للتبرؤ من عروبة لبلدنا تتبناها تيارات سياسية وفكرية عديدة، وتؤكدها معظم الوقائع والحقائق التاريخية والحديثة المعاصرة، فضلا عن غالبية المصريين أنفسهم.. والمصادفة قادمة من طبيعة الشخصيتين، ومن توقيت الهجوم "الصاخب"..

أما مصادفة التوقيت، فهى أن يأتى الهجوم ـ السابق واللاحق ـ على انتماء مصر العربى وحقيقته فى مرحلتين تشابهتا فى كثير من الملامح الخطرة، وأبرزها تفشى دعاوى التفتيت ومحاولاته الدؤوبة على الصعيدين المصرى والعربى معا، والسعى السياسى من أطراف بعينها، لصياغة هوية جديدة لبلدنا ومنطقتنا كلها، ففى وقت توفيق الحكيم بدأت فى مصر أول أحداث ما بات يسمى الفتنة الطائفية، بين مسلميها

ومسيحيها، وسرت المشاعر الطائفية المتعصبة فى جنبات المجتمع، لتهدد وحدته التاريخية، بينما كانت سلطة الرئيس السادات الجديدة ـ حينئذ ـ تسعى بكل سبلها لإعادة تشكيل الهوية المصرية، وفصلها عن سياقها العربى!! أما فى وقت أسامة أنور عكاشة، فقد أضيفت للفتنة الطائفية السارية بين عنصرى المصريين، فتن أخرى راحت تتسارع وتتسع، واتخذت أشكالا مذهبية تقسم المسلمين أنفسهم بين سنة وشيعة، وأخرى عرقية، وثالثة لغوية ثقافية، بينما تجرى فى الوقت نفسه محاولات دؤوبة بالسلاح والسياسة والإعلام من جانب "الغزاة الأمريكيين" وحلفائهم الإسرائيليين، لتمزيق شعوب ودول المنطقة بين هويات مختلفة متصارعة، بعد القضاء على الهوية الواحدة التى تجمعهم، أى تلك العروبة المغدورة!!

أما عن المفارقة، فهى أن يتراجع كل من "الحكيم وعكاشة" عن كل ـ أو معظم ـ ما بنيا عليه خلال سنوات طويلة فكرهما وإنتاجهما، الذى عرفا به بين الناس، بل وأن يشرعا فى الهجوم عليه مستخدمين اللغة نفسها تقريبا، المتخمة بالتعبيرات الأدبية والإنشائية، فى معالجة قضايا هى بطبيعتها ذات مضمون سياسى وتاريخى واجتماعى وثقافى معقد!! وعند النظر لبعض تفاصيل الهجوم على العووبة والانتماء القومى لمصر، نجد غياب العلوم المتخصصة والرؤية التحليلية التاريخية، ورغم أنهم يقرون بوجود عناصر تؤكد وجود ثقافة عربية سائدة، فهناك بلا شك وحدة ثقافية متحققة بالفعل، وأهم تجلياتها فى وحدة اللغة واللسان والإبداعين الأدبى والفنى، كما تتشابه أنماط السلوك وبعض قوالب التفكير "تتشابه ولا تتطابق".. وهذا ما تقوله أبرز نظريات الوجود القومى العالمية، التى

ترى نفس تلك العناصر كافية لإثبات هذا الوجود المشترك لمجموعة من الشعوب أو الدول. . أما قولهم بأن مقومات الدولة الواحدة أو الموحدة غير موجودة وسمات الوطن الواحد غير متوفرة فى العالم العربى، فإن غياب تلك الدولة أو الوطن الواحد، إنما يعكس غيابا لإرادة سياسية وعوامل ذاتية ولا يعنى غيابها غياب مقومات الأمة أو القومية الواحدة التى لا يتوقف وجودها على تلك الإرادة وهذه العوامل.

. . . .

. . . .

وهناك تفسير ـ يضيف كثيرا لما سبق ـ ومن وجهة نظر الأستاذ هيكل فإن مصر باعتبارها أقدم دولة فى التاريخ، فإن ذلك يخلق خلطا بين مفهوم الدولة ومفهوم الأمة فيها، فضلا عن أن الفكر والفعل السياسى المصرى أخذا قضية انتماء مصر العربى أمرا مفروغا منه، وبالتالى فإن أحدا لم يبذل جهدا كافيا لتأصيله، وأن وحدة الأمن العربى ليست واضحة فى اليقين المصرى بالدرجة الواجبة، وكذلك وحدة المصلحة العربية، ومن محصلة ذلك كله أن الفكرة العربية فى مصر تكون معرضة ومكشوفة لدعاوى من نوع "مصر وحدها" أو "مصر أولا" وما شابه ذلك، وكلها دعاوى يسهل ترويجها والارتكان عليها بنجاح ـ فى بعض الأحيان ـ بقصد تعطيل التفاعلات الضرورية بين الشعب على ضفتى النهر، وبين الأمة من المحيط إلى الخليج!!

وفى حقيقة الأمر فإن هذه الدعاوى تتجاهل تماما أحكام الجغرافية والتاريخ على أى شعب أو أمة، فهى التى تحدد لها انتماءها فلا يعود لعبة سياسية أو نزوة أهواء. . وتحدد لها ضرورات أمنها فلا تعود حائرة

بين الآفاق لا تعرف أين تحذر وأين تطمئن. . وتحدد لها ضرورات مصالحها القومية، فلا تعود هذه المصالح معلقة بالمصادفات أو بالمغامرات، أو مختلطة بمطامع فئات أو جماعات أو طبقات تسود يوما فى غفلة زمان، فإذا هى تهدم فى لحظات محصلة قرون ونضال أجيال.

. . . .

ومن أوراق السبعينيات انحراف الإرادة العربية عن حدود تاريخها بعد أن أصبح التصاعد المستمر لمنحنى التمزق والتشتت متصلا بالمواقف التى قيدت قدرة الأمة العربية على استثمار انتصارها السياسى والعسكرى بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣، وحين أدرك العالم بالمعرفة مواقع القوة الحقيقية داخل هذه الأمة حين جندت إمكانياتها وقدراتها تلقائيا مع بدايات الساعات الأولى للسادس من أكتوبر!! وفى الوقت الذى كانت فيه الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل ـ وضمن أهداف ونوايا وطموحات ـ تبحث عن الثغرات والقيام بمراجعة شاملة للوضع فى الشرق الأوسط. . كانت هناك ـ داخل الجغرافية العربية ـ تبدلات واسعة ومفاجئة تعلن عن نفسها وكأنها عملية تصفية حسابات مع الواقع السياسى والاجتماعى والاقتصادى. . وكانت هناك تيارات مساعدة ترسم الخطوط العريضة لتلك المتغيرات التى توحى بأن المشكلة التى بدأت ملامحها تتشكل هى:

"الفراغ السياسى" والتى سحبت ورائها فيما بعد سنوات (اللاقرار) والعجز عن تحديد مسار الحركة العربية فى مواجهة ما كان واضحا أنه طرح للخيارات السياسية العريضة ويستدعى تنسيق عربى لإدارة فنون التفاوض حول عملية السلام ولكن ما حدث لا يختلف كثيرا عن الغياب الرسمى للوجود العربى بالرأى والفعل داخل الحركة الدبلوماسية العالمية

أى غياب (الالتقاء العربى) حول موقف محدد. .

واستمرت سنوات (اللاقرار) تثير الاستفسارات حول ملكية القرار العربى أى من يملكه وما هى المصالح التى تحدد رؤيته الشاملة وما هى حدود مسئوليته وسلطات تأثيرة ومن الطبيعى أن تنتهى تلك التساؤلات باليأس عند حدود حالة الجمود السلبى ومستجدات أخرى حول انهيار ملامح التضامن والانتماء العربى مع تنامى دور "الإقليمية المحدودة" . . ومع غياب القرار العربى ـ الواحد والواضح ـ أصبحنا بصفة الجمع العربى تتعثر خطواتنا داخل ساحة الانتظار أو على هوامش الأحداث والدوران حول تسويق الشعارات بالتصريحات الرسمية وأصبح من الميسور أن ندرك بالمشاهدة أن القرار العربى قد دخل مرحله (فك الارتباط) مع حقائق الواقع العربى، وفقد بوصلة التوجيه لتحديد خط سياسى واضح، وتهيأ المناخ للاستقرار على الوضع الجديد القائم ـ التشتت فى الفكر، والسلبية القطرية، وتعارض اتجاهات الرؤى، والاهتمام بالقضايا الفرعية لـلتعامل مع أزماتنا الداخلية، وهى دعوة لإشعال الحرائق تجاوزت حدود المواقف العربية المتناقضة إلى تفاقم حالة الصراع العربى ـ وانفجار النزاعات العربية!!

وربما تستدعى السطور العودة إلى التساؤل: لماذا تجاوزت الأمة العربية محنة التصدع فى يونيو ١٩٦٧ والرياح معاكسة والصدمة شديدة، ولماذا أصبح تسلسل الأحداث بعد معركة السادس من أكتوبر ١٩٧٣ مثيرا لموجات متداخلة من علامات الاستفهام والتعجب (؟) والإجابة تختصرها كلمات أديب فرنسا الكبير أندريه مالرو: "ليست المسألة هى النصر العسكرى أو الهزيمة العسكرية، المسألة هى إرادة الأمة، وهذا الذى يبقى

وغيره تكنسه الأيام" .

. . . .

. . . .

وفى هذا كلـه فإن السنوات التـى بدأت مع منتصف الـسبعيـنيات ـ تقريـبا ـ أفرزت العـديد من المشـاكل . . ولم يكن دور مـصر بعيـدا عن تأثيرات سلبياتها :

* مشكلة اختيار الأسلوب الملائم لإدارة الصراع العربى ـ الإسرائيلى وفى ظل أوضـاع القوى الدولية الـراهنة، وحين كـانت المشاعر الوطـنية تغلق ملفـات التجاوزات العربية، وحـين كانت عناصر العمـل السياسى والعسكرى مع تدافع الحوادث قادرة على إتمام المهمة التاريخية وهى بلورة ملامح التـغيير لمـرحلة جديدة تبـدأ فى تاريخ الوطن العـربى!! إذن كان القرار العربى أو بالتحديد توقيت وصناعة القرار العربى ـ وأحيانا صياغته ـ عـامـلا فعـالا فى خـلق الأحـداث التـى قـاسيـنا من سـطوة آثـارها وانعكاساتهـا، والأمثلة تشير إلى أنه لـم يستطع اجتياز مـرحلة الخيارات المتاحة . . وأنه لم يستطع أن يتفاعـل مع المستجدات التى طرأت مع نتائج حرب أكتـوبر ١٩٧٣ قبل بلورة المواقف الـتى فقدت غالبـا أدنى درجات الوفاق العربى فـى الرأى . . وترتيبا على ذلك . . أين كان الـقرار العربى مع بداية الاتـفاق على فك الاشـتباك داخل الخـيمة الـتى انتصـبت على الكيلو ١٠١ شـمال شرق القاهرة ـ لأن مـعركة ١٩٧٣ لم تكن مـواجهة إقليميـة ولكنها كانت امتداد لمواجـهة قومية عبر سنـوات الصراع العربى الإسرائيلى ـ لذلك فإن غياب القرار العربى وقتها ـ جعل السماء مفتوحة أمام تقلبات الطقس العربى و"تجمع" سحب التناقضات . .

* مشكلة فتح الأبواق الإعلامية والرسمية تقذف بالاتهامات وتوزع الأدوار داخل جدول "الخيانة والعمالة" وتدير حرب الكلمات فى صلب تجليات النزعة العاطفية ومن هنا يمكن تقييم القرار العربى المتصل بزيارة الرئيس السادات للقدس وقطع العلاقات الدبلوماسية مع مصر . . والزيارة لم تحقق أهدافها بالسرعة المطلوبة، ولم تكن أقصر الطرق فعالية للتوصل إلى تسوية شاملة، وحتى يمكن تجميد ردود الأفعال العربية الرافضة، وتشجيع المشاركة العربية فيما بعد . . وما حدث كما ترويه مذكرات سايروس فانس ـ وزير الخارجية الأمريكية فى ذلك الوقت ـ "بينما لم تنتج حركة السادات الجريئة الاستجابة الفورية والدرامية التى كان يأملها فإنها أثرت بشدة فى المناخ السياسى والتفاوضى . . وكانت مهمة تحويل مبادرة السادات إلى عملية محددة للتفاوض قد وقعت بمعظمها على عاتق الولايات المتحدة، وكانت خطوة السادات الأولى هى أنه دعا الأطراف جميعا منظمة التحرر الفلسطينية والأمم المتحدة إلى الاجتماع فى القاهرة فى منتصف ديسمبر لمؤتمر الشرق الأوسط، وعلى أى حال فقد فشلت حتى الجهود الأمريكية المكثفة فى أن تنتج اهتماما عربيا بهذا الاجتماع ولم يشارك فيه سوى ممثلين أمريكيين ومصريين وإسرائيليين ومراقب من الأمم المتحدة"

. . . .

كان التشاؤم العربى واضحا ـ من إمكان أن تستجيب إسرائيل لمتطلبات السادات السياسية، وكانت الريبة تزرع القلوب بالشك فى أن الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل تستدرجان مصر إلى سلام منفصل!! ومهما كانت الرؤية فى ذلك الوقت، فإن ما قيل عن كسر الحاجز النفسى

بين مصر وإسرائيل خلط كل الأوراق وانتقلت متاريس الحاجز النفسى لتقيم دعائمها بين الدول العربية ومصر.. وفى الخامس من ديسمبر١٩٧٧، تشكلت الجبهة القومية للصمود والتصدى (سوريا وليبيا واليمن الجنوبى والجزائر ومنظمة التحرير الفلسطينية) لمعارضة موقف السادات.. واتخذت الأقطار العربية الأخرى مواقف سلبية، ربما كانت تحاول أن تمتص الصدمة.. وتطورت ردود الفعل العربية إلى قمة الانفعال باتخاذ "قمة بغداد" قرار تجميد مقعد مصر داخل البيت العربى.. ونقل جامعة الدول العربية إلى تونس!!

....

وكانت الدبلوماسية المصرية تكافح على عدة جبهات من أجل المحافظة على عضوية مصر فى منظمة الوحدة الإفريقية وفى حركة عدم الانحياز بعد أن أخرجت مصر من الجامعة العربية ومن المؤتمر الإسلامى.. وفى ظل الفراغ السياسى لغياب دور مصر بدأت التطلعات نحو موقع الزعامة والقيادة الشاغر(!)

* مشكلة البحث عن الزعامة (زعامة قطرية قيادية) تتولى إدارة مقدرات الأمة العربية، وفى ظل التصورات بعزل أو غياب دور مصر.. وكانت سوريا تسعى بحذر، رغم الاشتباك السورى فى تعقيد الموقف اللبنانى بعد اشتعال الحرب الأهلية اللبنانية فى الثالث عشر من أبريل ١٩٧٥.. وكان الاعتقاد السورى - فيما أظن - أنه بحكم شرعية التاريخ العربى وعرف "الإرث" فإن لسوريا الحق شرعا فى "الإحلال" وأن تكون "البديل" المقبول للقيام بدور القيادة فهى الجناح الشمالى الشرقى للجسد العربى توأم الجناح الغربى للأمة العربية، وبالاعتماد المتبادل بينهما

حققت هذه الأمة عبر التاريخ انتصاراتها وردعها للأطماع الخارجية، وكما إنه لا حرب بدون مصر فإنه لا سلام بدون سوريا والتى تحتفظ بدرجة (الأول مكرر) بعد القاهرة فى إدارة أحداث التاريخ العربى!!

وكانت العراق - أيضا - تسعى إلى ذلك علانية وبخطوات واسعة تستعجل الانتهاء من مراسم "التنصيب" العربى لها.. وكانت مسوغات التعيين لشغل مقعد القيادة متعددة: فالعراق قد حمل لواء الدعوة لتجميد دور مصر داخل جامعة الدول العربية والمقاطعة الدبلوماسية للعلاقات معها، والعراق يتمتع بثروة بترولية كبيرة (ثان دولة عربية بعد المملكة العربية السعودية من حيث حجم الاحتياطى النفطى) وبالإضافة إلى "الوجه البترولى" فالعراق له "الوجه القومى الثورى" ويتبنى المنهج الوحدوى، وعطفا على ذلك ينادى بتعبير "عراق العرب" من حيث وحدة الجغرافية العربية ووحدة المصير والانتماء، أى منهج نضالى يطالب بالكفاح المسلح لتحرير الأراضى العربية وهو منهج يخاطب مشاعر الجماهير العربية!! وراودت أحلام الزعامة فى زمن الفراغ السياسى - العقيد القذافى أيضا!!

ولم يلتفت أحد إلى مخاطر اللعب بحقائق استراتيجية وغياب أو تجميد "دور مصر".. وكان هذا خطأ تداعت منه أخطاء!!

....

وأصبحت الأمة العربية أمام نتائج تنذر بأسوأ العواقب وتنسج بكل انعكاساتها البدايات التمهيدية لسنوات حقبة التردى إلى قاع البركان.. وأصبح الزمن العربى مقياسا لتحقيق مقولة "أوسكار وايلد" بأن الشخصيات وليست المبادئ هى التى تحرك الزمن. بعد أن تحكمت

المصالح الشخصية والاتجاهات المزاجية واتصالها بالتيارات الخارجية فى رسم حدود الخطوط العريضة للعديد من خطوات تحركاتنا العربية داخل استراتيجية تفتقد أولا ـ وبتأثير الأسس السابقة ـ لمقومات المصلحة القومية العربية، حتى قيل أن العالم العربى يخلق أسبابا للتعارض فيما بينه داخليا أكثر مما يخلق أسبابا من أجل الوفاق، وعلى هذا الأساس جرى التعامل مع الأحداث ومع مجموعة القضايا العربية ومشاكلها الفرعية!!

. . . .

. . . .

ومن أوراق السبعينات:

* سياسة الخطوة ـ خطوة التى انتهجها وقام بتسويق فلسفتها وزير الخارجية الأمريكى الأسبق "هنرى كيسنجر" ـ بعد انتصار ١٩٧٣ ـ والتى تقوم على عقد اتفاقيات ثنائية لفصل الأطراف وتقليل مخاطر تجدد القتال وبدء عملية طويلة لبناء ثقة كل طرف فى عملية التفاوض ـ ومن خلال التفاوض على اتفاقيتى ١٩٧٤ لفض الاشتباك فى سيناء ومرتفعات الجولان، واتفاقية سيناء الثانية فى شهر سبتمبر ١٩٧٥ ـ وتعتمد تلك السياسة على الادعاء بأن عدم الثقة بين مصر وسوريا وتعنت الراديكاليين العرب والتفكك العربى يحول دون التوصل إلى حل شامل.. (!؟) وهى سياسة كانت تدور حول محور واحد: مواجهة التغيير الذى حدث فى مناخ الشرق الأوسط بعد أن عاد العرب إلى اللجوء للقوة العسكرية والضغط الاقتصادى.. من هنا بدأت (عملية) تغيير الاتجاهات وقطع خطوط الاتصالات داخل معادلة الحركة العربية وتهيئة المناخ لأوهام الحل الأمريكى العادل.. وترسيم علاقة صداقة أمريكية ـ عربية!! ورغم

غموض المصالح المتبادلة التى تعتمدها الولايات المتحدة لعقد أواصر الود مع العرب فإن سايروس فانس وزير خارجية الإدارة الأمريكية فى عهد الرئيس الأمريكى "جيمى كارتر" قد أزاح قدرا كبيرا من هذا الغموض فى مذكراته والتى تقول "إنه أثناء مراجعتنا للسياسة الخارجية فى منزل كارتر فى "بلينز" اتفقنا على أن الأهمية الحيوية هى لنظم حكم مستقرة معتدلة وموالية للغرب فى الشرق الأوسط ووجود مطال إلى النفط العربى، وأنه لم يكن محلا للسؤال أن حجر الأساس فى سياسة كارتر حيال الشرق الأوسط سيبقى هو التزامنا بأمن إسرائيل" . . واعتمدت السياسة الأمريكية على تقسيم العرب إلى معتدلين وراديكاليين (متطرفون فى رفضهم للرؤية الأمريكية) وعلى الساحة العربية ـ كالمعتاد ـ اختلفت المواقف بين دول عربية تحتفظ بمواقع صداقة أمريكية وترحب بالدور الأمريكى. . ودول ترفض تأسيسا على حقيقة التوجه السياسى للإدارة الأمريكية والتزامها بالأمن الإسرائيلى!!

. . . .

ومن أوراق السبعينات

* انفجار بركان الثروة العربية يرمى بالكنوز فوق الرمال التى انتصبت فوق رمالها الأعمدة الأسمنتية، وتحول الفائض إلى البنوك الغربية والأمريكية، وتراكمت الأرصدة العربية فى مصارف خارج حدودها. . وانقسم العالم العربى إلى مستويين اثنين تتباعد بينهما مستويات الغنى والفقر وتتباعد بينهما بمسافات أبعد وأعمق "وحدة المشاعر" بمعاناة واحتياجات الآخرين، وأصبحت المأساة "المضحكة" هى البحث عن عملية توافق بين نظريتين: نظرية الأمن العربى. . ونظرية الرخاء

العربى.. وباعتبار ما حدث من الارتفاع الجنونى لأسعار النفط وتضخم الثروة العربية يرجع بالأساس إلى ما حدث يوم السادس من أكتوبر المجيد، وبالضرورة إعادة فتح قناة السويس للملاحة الدولية.. وفى مقابل دول "الثروة" كانت دول أخرى.. وفى المقدمة مصر تستقبل قروضا بمليارات الدولارات، وخدمة ديونها التى كبلت حركة التنمية الاقتصادية حتى المنح والمعونات ـ التى لا ترد ـ جاءت مقيدة الاتجاه نحو مصارف استخداماتها.. كما أن الأزمات الخانقة والانهيارات الاقتصادية والعجز فى ميزانى المدفوعات والتجارى لدول تقع داخل الوطن الكبير العامر بثرواته وإمكانياته المادية و(نقوده) المتراكمة داخل مصارف الغرب ـ أضافت عمقا أبعد لصورة ترسم الخلل داخل المجتمع العربى سياسيا واقتصاديا.. ويتصل ذلك بالعديد من أوجه الحياة.. اجتماعيا وثقافيا..

....

هناك ظروف وعناصر واعتبارات جاءت إلى الساحة بمناخ مختلف.. ومع تشتت فى الفكر السياسى تحت ضغط الأحداث المتلاحقة المتدافعة فى أعقاب الانتصار العسكرى العربى، وتعثر استمرارية خطوط الاتصال والتشاور حول المستجدات التى طرأت على الساحة العربية بعد تباين المواقف بين مصر وسوريا حول اعتماد قرار وقف إطلاق النار على جبهات القتال المصرية ـ السورية ـ ومباحثات فك الاشتباك، ثم تعارض وتقاطع ما تحمله "أفكار" إدارة الأزمة، وكان لتضارب وتصارع تلك الأفكار والتصورات حول مفاوضات التسوية فى جنيف (١٩٧٣) أن بدأت سفينة التضامن العربى تجنح باتجاه القاع فى بحور الغربة عن الواقع وحقائق المنجزات التى حققتها روح معركة السادس من أكتوبر، وخاصة

بعد الاختراق النفسى والسياسى لزيارة الرئيس السادات للقدس فى ١٩ ـ ٢٠ نوفمبر (١٩٧٧) والتى لم تسفر عن تحولات أساسية فى المواقف الإسرائيلية الثابتة.. ومن الواضح أن تلك البداية كانت مقدمات لانفلات حدة وعصبية العاطفة العربية وهى إحدى صور تدخل العواطف المتحررة من حكمة العقل فى إدارة الحركة العربية!!

وتجلت أزمة العقل العربى، مع أزمة المشروع العربى داخل مرحلة "تفكيك" الأمة وتجميد أطرافها بالاشتباك والتصادم الذى بلغ حد التصفية الدموية فى أقطار عدة، والتهديد بحشد الجيوش على الحدود كما حدث بين (سوريا والأردن) (مصر وليبيا) وإعلان حالة الطوارئ العربية ـ العربية لمراقبة النوايا العدوانية العربية ـ العربية!! ومع أزمة العقل العربى.. فقد اختل ميزان العقل فى تمييز الصحيح من الخطأ، وأصبح العقل العربى يختصم دائما على البديهات والحقائق والمسلمات حين ضاعت من أمامه معالم الإرشاد!!

....

والحاصل أن حقبة السبعينيات شهدت أهم وأخطر السنوات التى ساهمت فى تشكيل مرحلة جديدة تتصدرها بدايات انهيار إطار مشروع النظام العربى بعد انتصار الأمة فى ١٩٧٣ ثم تفكك أطرافها وهزيمة إرادة التضامن ومع بدايات الزحف الأمريكى "المنفرد" لفرض الوصاية على الإقليم العربى.. ومقدمات خلق الحقبة الأمريكية وقبل سنوات من انهيار الكتلة الشيوعية ونهاية الحرب الباردة.. والتبشير بدور أمريكى بناء فى حل أزمة الشرق الأوسط!! ولحقت بهذه التطورات حركة موازية لإعادة ترسيم أو إعادة توصيف للصراع العربى الإسرائيلى عموما، ومع انفلات

غرور القوة والتطرف الإسرائيلى، وخلــق حقائق جديدة حتى إذا لم تكن هذه الحقائق متسقة مع التاريخ!!

وهذه الأوضاع التى خلقتها أوراق السبـعينيات كان لها أثر على دولة ذات دور خاص.. ولم يـكُن دور مصر ـ طبـيعته وحـيويته ـ بعـيدا عن انعكاســات هذه الدوامات التى اختــلطت معها الأوراق، وجــعلت الدور القائد فى حــالة غياب ولو مؤقـتا!! وتعطل الاتفاق عــلى (ثوابت) رغم أحكام الجغرافية والتاريخ والانتماء وضرورات الأمن والمصالح القومية.. وبدأ الحوار حول (المتغيرات) التى جاءت إلى الساحة بمناخ مختلف!!

ومن أخطر أوراق السبــعينيات.. جنوح "المزاج" الشخـصى للقيادة المصرية، بعيدا عن الحـقيقة الكبرى بأن دور مصر يستــمد تأثيره مما حوله وبالانتماء إلى ما هو أكبر من مجرد حدوده.. الانتماء إلى أمته العربية، وأن ما صنع قيادة مصر لأمتهـا، هو القبول العربى العام لدورها الذى لا بديل له فى العالم العربى.. وحين انتـهجت مصر خطا وحدها، لم يلق قبولا عــربيا عاما، جــاءت سنوات الخلل فى مـيزان العلاقات العــربية، وتراجع دور مصر عن مكانته كقوة مؤثرة فى ما حوله!!

□□□